حول الفتيل والنقير والقطمير

فى آيات الذكر الحكيم

الأستاذ الدكتور/ بسيوني عبدالفتاح فيود

الأستاذ فى قسم البلاغة والنقد

بكلية اللغة العربية بالقاهرة – جامعة الأزهر

تقديم

الحمد لله الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم " الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان " والصلاة والسلام على خير الأنام النبي العدنان أفصح بنى الإنسان محمد بن عبدالله الذي كان خلقه القرآن صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحابته أجمعين ومن والاه ومضى على نهجه واتبع سنته إلى يوم الدين ... أما بعد .

فإن الكلمات هى اللبنات التى تبنى بها العبارات وينسج منها الكلام وتؤلف التراكيب .. وكل لبنة من هذه اللبنات لها معناها اللغوى ولها بناؤها ووزنها الصرفى ولها جرسها وصفاتها النطقية من حيث الخفة على اللسان والثقل ومن حيث الشدة والضعف ومن حيث الجهر والهمس .. وقد يتجاوز بالكلمة معناها اللغوى فيؤدى بها معنى كنائى أو معنى مجازى ... ولذا تناولها بالدراسة علماء أصول اللغة وعلماء الصرف ثم علماء البلاغة.

فعلماء أصول اللغة وضعوا المعانى اللغوية للمفردات تلك المعانى التى نراها موضحة فى معاجم اللغة حيث تكفلت المعاجم اللغوية ببيان المعانى اللغوية لمفردات اللغة .. كما تعرض علماء أصول اللغة لأوصاف الكلمة النطقية وصوتها ودوران مادتها حول معنى واحد إلى غير ذلك من الدراسات اللغوية التى تناولت مفردات اللغة .

وعلماء الصرف تناولوا بنية الكلمة ووضعوا الموازين الصرفية التى توزن بها أبنية الكلمات وما أشبه علم الصرف بعلم التشريح حيث تشرح فيه الكلمات وتجلي أبنيتها واشتقاقاتها وأوزانها .. كيف تصاغ المشتقات وتوزن المصادر وكيف ينسب إلى الكلمة وكيف تصغر .. وعند تشريح الكلمة يتجلى ما حدث فيها من إعلال بالنقل والقلب إلى آخر تلك المقاييس الصرفية .

ووضع علماء البلاغة ضوابط يحكم بها على الكلمات بالفصاحة أو بعدم الفصاحة واعتمدوا المقاييس اللغوية والصرفية أسسا لتلك الضوابط فلكي تكون الكلمة فصيحة لابد من موافقتها المقاييس اللغوية والصرفية .. لابد من وضوح معناها اللغوى فلا يكون غريبا .. وعند استعمال الكلمة فى معني مجازى أو فى معنى كنائى لابد أن يكون هذا الاستعمال جاريا وفق العادات والعرف العربي وإلا تعقد المعنى والتعقيد المعنوى يخل بفصاحة الكلام .. وعند تأليف الكلام وبناء جمله لابد من مراعاة انسجام الكلمة فى سياقها واتساقها مع جاراتها وملاءمة معناها لمعانى تلك الجارات وإلا تنافرت تلك الكلمات ورفض بعضها بعضا وثقلت على اللسان واختلت فصاحة الكلام الذى تألف منها .. وتحدث البلاغيون عن بنية الكلمة وصفاتها النطقية وجريانها على اللسان ووضعوا ضوابط لذلك أهمها : تقارب مخارج الأحرف تقاربا شديدا أو تباعد تلك المخارج تباعدا شديدا وشبهوا التقارب الشديد بمشى المقيد والتباعد الشديد بالطفر أو القفز .. فشدة التقارب أو التباعد لمخارج أحرف الكلمة يؤدى إلى تنافر تلك الأحرف فتثقل الكلمة على اللسان وتختل فصاحتها .

وهذا الضابط يحتاج إلى مراجعة إذ لابد من إضافة قيد له حتى يستقيم .. ذاك القيد هو اعتبار السياق الذى تساق فيه الكلمات واعتبار المقام الذى قيلت فيه وحال القائل الذى قالها .. إذا تلاءمت الكلمة الثقيلة فى سياقها وانسجمت فيه فهى فصيحة متمكنة فى سياقها .. وإن قلقت ورفضها السياق ونفرت عنها جاراتها كانت نابية وحكم عليها عندئذ بعدم الفصاحة .. المعول عليه فى الحكم بالفصاحة أو بعدم الفصاحة :

المقام وسياق الكلمات وأما ذاك الضابط – تقارب مخارج الأحرف أو تباعدها – فهو ضابط للثقل والتنافر لا يتجاوز ذلك إلى الحكم بالفصاحة أو بعدمها .

يقول الخطابي : " اعلم أن عمود هذه البلاغة التى تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذى إذا أبدل غيره مكانه جاء منه إما تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة"(١)

ويقول عبدالقاهر: " وهل تجد أحدا قال : هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعانى جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة" وفى خلافه : " قلقة ونابية ومستكرهة" إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم وأن الأولي لم تَلِق بالثانية فى معناها وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية فى مؤداها؟" (٢)

المعول عليه إذاً فى الحكم على الكلمة بالفصاحة أو بعدم الفصاحة هو السياق وقرائن أحواله فلابد من الوقوف على حال قائل الكلمة ومعرفة المقام الذى قيلت فيه ، ولا يحكم الناقد على الكلمة بالفصاحة أو بعدم الفصاحة دون أن يعرف حال قائلها ويحيط بالمقام الذى قيلت فيه .. فمثلا كلمة " الهعخع " التى هى العلم على ثقل الكلمة وتنافر أحرفها وغرابة معناها حيث استشهد بها البلاغيون لشدة تنافر الأحرف وحكموا عليها بعدم الفصاحة ... لا ينبغى أن يحكم عليها هذا الحكم إلا بعد معرفة حال قائلها والمقام الذى قيلت فيه ، فقد قالوا : إنها كلمة للمعاياة لا يعرف لها معني، وقالوا: إنها كلمة تطلق على شجر مر المذاق كريه الرائحة، وكأن صوتها عند النطق بها يحكي صوت المتقيء

---

(١) بيان إعجاز القرآن ٢٩ .

(٢) دلائل الإعجاز ٤٤ .

ويوحى بمعناها المذكور، إنها كلمة قالها الأعرابى عندما سئل عن ناقته، قال : " تركتها ترعى الهعخع " فقبل أن نحكم على تلك الكلمة بالفصاحة أو بعدم الفصاحة ننظر فى حال ذاك الأعرابى عندما قال هذه العبارة، هل كان فى رغد من العيش ، السماء قد أمطرت والأرض قد اخضرت، والناقة تجد ما ترعاه غير هذا الشجر الكريه المر، إن كان كذلك فتلك الكلمة لا تلائم حاله ولا تناسب المقام الذى قيلت فيه وينبغى عندئذ أن يحكم عليها بعدم الفصاحة .

أما إذا كان الأعرابي وقت أن سئل هذا السؤال فأجاب تلك الإجابة يعيش فى فقر ولا تجد ناقته ما ترعاه إلا ذاك الشجر لأن السماء لم تمطر والأرض قد أجدبت ، فإن هذه الكلمة " الهعخع" تصور حاله وتناسب المقام الذى قيلت فيه وتنسجم معه وينبغى عندئذ أن يحكم عليها بالفصاحة لأنها مقبولة متمكنة فى سياقها لا يجافيها الحال ولا ينبو بها المقام .. فالذى ينبغى أن يعول عليه فى الحكم بفصاحة الكلمات أو عدم فصاحتها إنما هو السياق والمقام الذى وردت فيه أهى منسجمة متمكنة فيه أم قلقة ونابية ؟ أما ثقلها على اللسان وتنافر حروفها فلا يعتد به بمعزل عن السياق ومنأى عن المقام .

*****

ونتتبع فى هذا البحث ثلاث كلمات هى : " الفتيل والنقير والقطمير" نتتبعها فى آيات الذكر الحكيم ، وهى كلمات متفاوتة فى جريانها على اللسان فأخفها : " الفتيل" يليها : " النقير" ثم " القطمير" ومعاني تلك الألفاظ تتعلق بالنواة ، فالفتيل: القشرة فى شق النواة وسمى بهذا الاسم " فتيلا " لأنه انفتل وتجمع فى شق النواة ولأنك إذا أردت استخراجه انفتل فى يدك ، والنقير : النقرة فى ظهر النواة قالوا ومنها تنبت النخلة ، والقطمير: القشرة الرقيقة التى تحيط بالنواة .

وقد ضربت هذه الكلمات الثلاث مثلا للشئ القليل الحقير الذى لا يعتد به ، وجاءت متمكنة فى مواقعها من آيات الذكر الحكيم منسجمة فى سياقها متلائمة مع المعنى الذى يفيض به السياق، وعلى الرغم من تقارب معانيها اللغوية وضربها مثلاً لمعنى واحد هو " الشئ القليل

الحقير الذى لا يعتد به " فإن واحدة منها لا تصلح فى موضع الأخرى.. تجد قلقا ونبوا واضطراباً إن أنت رمت استخدام " الفتيل" فى موضع " النقير" أوفى موضع " القطمير" أو استخدام " النقير" فى موضع " القطمير" السياق يرفض ذلك و المعني يأباه .

وينهض هذا البحث بتجلية ذلك وإبرازه من خلال تتبع سياق الآيات الكريمة التى ورت بها تلك الألفاظ الثلاثة " الفتيل والنقير والقطمير" ليكشف عن مدى انسجام تلك الألفاظ فى سياقها وليبرز الوشائج والصلات والتآلف والترابط بين هذه الألفاظ وما ساد فى سياقها.. تلك الوشائج التى ترفض وتمنع استخدام لفظ من هذه الألفاظ الثلاثة مكان أحد أخويه .. ذاك هو القرآن المعجز الذى إذا انتزعت منه لفظة ثم أدير اللسان العربى كله على أن نجد لفظة أخرى تصلح مكانها ما وجدنا ولو كانت تلك الأخرى شديدة القرب منها لفظا ومعنى كما فى هذه الألفاظ الثلاثة : " الفتيل والنقير والقطمير" فسبحان المحيط بأسرار كتابه .

تمهيد

مواقع اللبنات فى آيات الذكر الحكيم

من جوانب الإعجاز القرآنى : الإعجاز البلاغي فالقرآن معجز بنظمه وما يكمن وراء تراكيبه ونسج عباراته من مزايا بلاغية ، إنه كلام رب العالمين "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"[١] انعدم الاختلاف وانسجمت اللبنات فى مواقعها وتلاءمت فى سياقاتها ففاضت تراكيبه بالبلاغة العليا التى لا يستطيعها بشر.. ويتجلى لنا ذلك إذا ما تدبرنا الآيات الكريمة وتأملنا مواقع الكلمات فى تراكيبها، ولنقرأ بعض الآيات الكريمة ونتأمل لبناتها ليبدو لنا ذلك ..

قال تعالي : " كذبت عادت فكيف كان عذابي ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى يوم نحس مستمر* تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر"[٢] وقال تعالي: " وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية"[٣] فى هذه الآيات الكريمة تصوير لمصارع عاد قوم هود حيث أهلكوا بريح صرصر وننظر فى التشبيهين : " كأنهم أعجاز نخل منقعر " ... " كأنهم أعجاز نخل خاوية" ونتأمل القيدين: " منقعر" و" خاوية" فنجد انسجام كل قيد فى سياقه الذى ورد فيه تشبيهه إن التشبيه فى سورة القمر فى سياق تجلي فيه بداية إرسال الريح الصرصر عليهم " إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر" وذا يناسبه منازعة الناس ومقاومتهم للريح التى انتزعتهم " تنزع الناس" وألقت بهم على الأرض فور إهلاكم فصاروا كأعجاز النخل المنقعر أى: المنقلع عن مغارسه الساقط علي الأرض فما زالت به قوة وصلابة .. أما التشبيه فى سورة الحاقة فقد جاء فى سياق تجلي فيه

---

(١) النساء ٨٢ .

(٢) القمر ١٨ - ٢٠

(٣) الحاقة ٦ - ٧

تسخير الريح عليهم واستمرارها سبع ليال وثمانية أيام صاروا بعدها " كأنهم أعجاز نحل خاوية" وفرق بين أعجاز النخل المنقعر وأعجاز النخل الذى تآكلت أجوافه فصارت خاوية ، إن القوم فى تشبيه سورة الحاقة بليت أجسامهم وتآكلت ، وهذا يتلاءم مع تسخير الريح عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما، وينسجم مع الأوصاف المذكورة فى السورة الكريمة " الحاقة .. القارعة .. الطاغية .. العاتية .. الأخذة الرابية .. طغى الماء ... " هذا التجاوز فى الصفات يلائمه الإبعاد فى الإهلاك حيث صاروا " كأنهم أعجاز نخل خاوية " أما تشبيه سورة القمر فليس فيه هذا الإبعاد لأن الريح أرسلت عليهم ولم تسخر زمنا - كما فى الحاقة- فكان الاكتفاء باقتلاع النخل وإسقاطه على الأرض تصويرا لإهلاكهم وتمثيلا لصرعاهم حيث صاروا : " كأنهم أعجاز نخل منقعر" ... إن كل قيد من القيدين : " منقعر وخاوية " قد انسجم فى سياقه من حيث المعنى ومن حيث الفاصلة ولو رمت جعل أحد القيدين مكان الآخر رمت محالا ورأيت قلقا ونبوا، لأن المعنى عندئذ يلفظ ذاك ويأباه والفاصلة تنفر منه .

ولنقرأ آيات أخرى ليتجلي لنا مدى انسجام اللبنات فى سياقها من الآيات الكريمة ، وتلاؤمها فى مواقعها من تلك الآيات.

قال تعالي : " أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون "[1] .

وقال تعالي : " إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون* مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون"[2] فى هذه

---

(١) البقرة٢٦٦.

(٢) آل عمران ١١٦، ١١٧.

الآيات الكريمة تمثيل لمن ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ... مثل فى آية سورة البقرة بجنة ذات نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار فأثمرت تلك الجنة وصار له فيها من كل الثمرات .. وقوله تعالي :" له فيها من كل الثمرات " ينبئ بأن فى الجنة أشجارا أخرى كثيرة غير النخيل والأعناب ... إن صاحب الجنة شديد الاحتياج إليها لسببين : أولهما : أن الكبر قد أصابه .. ثانيهما : أن له ذرية ضعفاء يحتاجون إلى رعايته ... هذه الجنة التى اشتدت حاجة صاحبها إليها والتى فيها من كل الثمرات تحترق فجأة " أصابها إعصار فيه نار فاحترقت " أتى الإعصار عليها بناره فاحترقت أشجارها واحترق نخليها..

ومثل هذا الإنفاق فى آية سورة آل عمران بحرث قوم ظلموا أنفسهم أصابته ريح فيها صر فأهلكته .. أهلكت الحرث ولكنه لم يحترق كما احترقت أشجار النخيل والأعناب فى تمثيل آية سورة البقرة .. إن المراد فى التمثيلين المبالغة فى تصوير الإهلاك والذى يحقق تلك المبالغة فى تمثيل سورة البقرة الإعصار المحرق: " إعصار فيه نار" لأن الممثل به جنة من نخيل وأعناب وأشجار أخر وعندما يأتي الإعصار عليها فيحرقها لا تكون مظنة الإثمار فى أعوام مقبلة ... لا يصلح هنا أن يكون المهلك: " ريح فيها صر " أى : ريح شديدة البرودة، لأنها ستهلك ثمار الأشجار فقط وتبقى أصولها فتكون مظنة الإثمار فى الأعوام المقبلة ... وكذلك لا يصلح فى إهلاك الحرث: " إعصار فيه نار" لأن ذاك الإعصار يحرق الحرث – يحرق ثمره وأصوله – فيتمكن صاحبه من زراعة أرضه فور الانتهاء من الإهلاك.. أما " ريح فيها صر" فإنها تهلك الحرث والزرع – تهلك الثمر – وتبقى مخلفات الإهلاك وعلى صاحب الأرض أن ينظفها من تلك المخلفات إذا أراد زراعتها وهذا التنظيف غرم آخر يضاف إلى فقدان الثمار فيزداد الخسران .. يتجلي لنا من ذلك أن : " إعصار فيه نار" ينسجم مع الألفاظ التى مثل بها فى آية سورة البقرة ، فهى جنة من نخيل وأعناب وأشجار والذى يحقق المبالغة فى إهلاكها أن تحترق تلك الأشجار ، والمهلك " إعصار فيه نار" هو الذى يحقق ذلك .

وكذا " ريح فيها صر" ينسجم مع إهلاك الثمار والإبقاء على أصولها ، والذى يحقق ذلك أن يكون المهلك : " ريح فيها صر" .. إذا لا يتأتي أن يستبدل بمهلك الجنة : " إعصار فيه نار" مهلك الحرث :" ريح فيها صر" ولا أن يستبدل بمهلك الحرث مهلك الجنة ، المعنى يضطرب ولا يستقيم ، لأن المهلك عندئذ لن يحقق الغاية المرجوة منه .

إن السياق القرآني يحدد اللبنات المستخدمة فى بناء التركيب ونسج التصوير، وما يحدده السياق ويتطلبه لا يصلح غيره فى موضعه .. ففى قوله تعالي : " مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد"[1].

وفى قوله عز قائلا : " والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب"[2]

مثلت فى الآيتين الكريمتين أعمال الكفار التى يحسبونها تنفعهم وتنجيهم لكونها من جنس الخير والبر، وهى غير نافعة لفقدان الإيمان إذ يشترط لنفع العمل الصالح أن يكون مقرونا بالإيمان : " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا"[3] أما الكافر الذى يعمل صالحا فلن ينفعه ذاك العمل إنه : " كرماد اشتدت به الريح يوم عاصف " أو : " كسرب بقيعة يحسبه الظمآن ماء " السياق فى سورة إبراهيم أبرز الكافر وقد انتهت حياته وصار فى جهنم " يسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ " فلاءم ذلك أن يمثل عمله " برماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف " فلم يعد لذاك الرماد وجود ، فأنى يكون له وجود وقد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ؟ فكما أن الكافر لم يعد له وجود وصار فى جهنم يتجرع الصديد فكذا ما مثل به عمله لم يعد له وجود،

---

(١) إبراهيم ١٨.

(٢) النور ٣٩.

(٣) الكهف ١٠٧.

لأنه رماد ذهبت به تلك الريح ... اقتضى السياق فى هذا السورة الكريمة أن ينسج الممثل به من : " رماد – اشتدب به الريح- فى يوم عاصف" فلم يعد للرماد وجود ، ولا وجود أيضا فى هذا التمثيل للكافر ، لأنه صار فى جهنم يسقى ماء صديداً.

أما السياق فى سورة النور فهو يبرز منهج الله الذى شرعه لعباده فالمؤمن يلتزم هذا المنهج ويسعى بنور الله ويمضى على هديه، أما الكافر فيعرض عن هذا النور ويأبى إلا أن يتخبط فى ظلمات الضلال، ولذا كان تمثيل عمله " بسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء .." ليتلاءم ذلك مع سياق السورة الكريمة الذى أبرز الكافر معرضا عن منهج الله رافضا نوره الذى شرعه لعبادة مستبدلا به ظلمات يتخبط فيها .. ولذا كان في التمثيل بارزا أيضا يلهث وراء ذاك السراب الذى يحسبه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه.. وبهذا يتجلي لنا انسجام اللبنات التى نسج منها التصوير فى الآيتين الكريمتين مع السياق فى كل سورة ، ومع أن الممثل له واحد فى الموضعين وهو أعمال الكفار، إلا أن تمثيلها " بسراب بقيعة .... " اقتضاه سياق سورة النور، وتمثيلها " برماد اشتدت به الريح ...." اقتضاه سياق سورة إبراهيم ولا يصلح أحد التمثيلين فى موضع الآخر، بل يتناقض مع السياق ويضطرب له المعنى ولا يستقيم .

وبعد هذا التمهيد الذى عرضنا فيه لمواقع اللبنات فى تراكيبها وسياقاتها من آيات الذكر الحكيم، والذى تبين لنا من خلال تلك الآيات التي تناولناها انسجام تلك اللبنات فى مواقعها وتلاؤمها فى سياقها الذى وردت فيه نتقل بعد ذلك إلى تلك الألفاظ الثلاثة موضوع البحث وهى :" الفتيل والنقير والقطمير" لنتتبع مواقعها فى آيات الذكر الحكيم ولنقف على ما وراء التعبير بكل لفظة منها فى تلك المواقع من مزايا وأسرار بلاغية .. وليتجلي لنا انسجام كل لفظة منها فى سياقها الذى وردت فيه وتآلفها مع ما ساد فى السياق من ألفاظ ومعان ورفض السياق أن يستبدل بما ورد فيه منها أحد اللفظين الآخرين .. سيتجلي لنا ذلك إن شاء الله تعالي من خلال تتبع تلك الألفاظ :"الفتيل والنقير والقطمير" فى مواقعها من آيات الذكر الحكيم ...

مواقع الفتيل والنقير والقطمير

فى آيات الذكر الحكيم

ضربت العرب المثل فى القلة والحقارة وعدم الاعتداد بالشئ بأربعة ألفاظ هى: " الثفروق والفتيل والنقير والقطمير" وقد اجتمعت هذه الأسماء الأربعة فى النواة، فالثفروق : ما بين النواة والقمع الذى يكون فى رأس التمرة كالعلاقة بينهما فهو ذاك الشئ الذى يلزق القمع من التمرة ، ولم يرد هذا اللفظ فى آيات الذكر الحكيم .

والفتيل : القشرة التى فى شق النواة وسمى بهذا الاسم " فتيلا" لأنك إذا أردت استخراجه انفتل بين أصابعك ، يقال : " ما أغنى عنه فتيلا" أى : ما أغنى عنه مقدار تلك السحاة التى فى شق النواة . والنقير : النقرة فى ظهر النواة ومنها تنبت النخلة وأصله : " فعيل" من النقر ، ويقال للخشب الذى ينقر فيه : " نقير" لأنه ينقر، والنقر: ضرب الحجر وغيره بالمنقار وهو حديدة كالفأس تقطع بها الحجارة ، ومنه منقار الطائر لأنه ينقر به : ويقال : " ما أصبت منه نقيرا" أى : ما أخذت منه شيئا لا قليلاً ولا كثيرا .

والقطمير : لفافة النواة وهى القشرة الرقيقة الملتفة عليها، هذه القشرة تلف النواة وتفصل بينها وبين التمرة ، يقال : " فلان لا يملك قطميرا" أى : لا يملك شيئا.

إن هذا الألفاظ الأربعة قد اجتمعت فى النواة - كما رأينا - ويضرب بها المثل للشئ القليل الحقير الذى لا يعتد به ، واللفظ الأول منها وهو" الثفروق " لم يرد فى آيات الذكر الحكيم ، أما الثلاثة الأخرى: " الفتيل والنقير والقطمير" فقد وردت فى القرآن الكريم ممثلاً بها للشئ التافه الحقير القليل، أى:لا يظلمون قدرها، ولا يملكون قدرها ، ولا يؤتون الناس قدرها .. يقول العلامة الجمل : " وقد ضربت العرب المثل فى القلة بأربعة أشياء اجتمعت فى النواة وهى : الفتيل والنقير

والقطمير – وهذه الثلاثة واردة فى الكتاب العزيز – والفروق وهو ما بين النواة والقمع الذى يكون فى رأس التمرة كالعلاقة بينهما "[1]

وعلى الرغم من أن هذه الألفاظ قد اجتمعت فى النواة وتقاربت معانيها اللغوية واستعملت مجازا فى معني واحد إلا أنه يبقى لكل منها معنى مستقل له إيحاءاته وله ظلاله – على نحو ما سنرى – وهكذا ألفاظ القرآن الكريم حتى تلك الألفاظ التى قالوا عنها إنها أخوات أومترادفات تلتقى فى معنى واحد ثم تجد لكل منها إفادة خاصة لا تفيدها الألفاظ الأخرى ... ولنضرب لذلك مثلا " بالهز " و " الأز " و " الاستفزاز " يقول الزمخشرى : " الأز والهز والاستفزاز أخوات فى معنى التهييج وشدة الإزعاج"[2] وإذا كانت هذه الألفاظ قد اجتمعت فى معنى التهييج وشدة الإزعاج فإنه يبقى لكل منها إفادة خاصة إذ يوحي الهزّ بالرفق واللين ولذا استعمل فى هز الزروع والأشجار والنخيل قال تعالي : " وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا"[3] ويوحى الأز بالشدة والقوة يقال : أزت القدر تؤز أزيزا أى : اشتد غليانها فالأز مثل الهز ولكنه يستعمل فى الحركة الشديدة وفى قوة الإزعاج[4].. ولذا استعمل فى إغراء الشياطين وتهييجهم بالوساوس والتسويلات قال تعالي : " ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا"[5] والاستفزاز أشد من الهز و من الأز ولذا استعمل فى الوعيد الشديد قال تعالي : " قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا"[6] فالألفاظ الأخوات أو المترادفات يبقى لكل لفظ منها إفادة

---

(١) الفتوحات الإلهة ١ / ٣٩٠.

(٢) الكشاف ٢ / ٥٢٤.

(٣) مريم ٢٥.

(٤) انظر لسان العرب مادة أز .

(٥) مريم ٨٣.

(٦) الإسراء ٦٣ ، ٦٤.

خاصة ينفرد بها ... وهذه الألفاظ الثلاثة : " الفتيل والنقير والقطمير" اجتمعت فى النواة وتقاربت معانيها اللغوية واستعملت مجازا فى معنى بلاغى واحد وبقى لكل منها معناه المستقل الذى يوحى بما لا يوحي به غيره وسيتجلي لنا ذلك فى مواقع تلك الألفاظ فى آيات الذكر الحكيم .

مواقع " الفتيل"

وردت كلمة " الفتيل" فى ثلاثة مواضع اثنان منها فى سورة " النساء" فى قوله تعالي:" ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً"(١) وفى قوله تعالي : " ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً"(٢) والموضع الثالث فى سورة الإسراء فى قوله تعالي : " يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً "(٣)

موقعا " النقير"

وردت كلمة النقير فى موضعين اثنين كليهما فى سورة النساء، فى قوله تعالي : " أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً"(٤) وفى قوله تعالي : " ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً"(٥).

موقع "القطمير"

وردت كلمة " القطمير" فى موضع واحد من سورة فاطر فى قوله تعالي: " يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس

---

(١) النساء ٤٩.
(٢) النساء ١٧.
(٣) الإسراء ٧١.
(٤) النساء٥٣.
(٥) النساء١٢٤.

والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير "[1].

تلك هى المواضع التى وردت فيها اللبنات الثلاث ويلاحظ فيها:

أولا : أن الكلمات فى مواضعها الستة قد جاءت نكرة: " فتيلا – نقيراً – من قطمير" وهذا التنكير يزيد من التقليل والتحقير الذى ضربت تلك الكلمات مثلا له .. وقد وقعت جميعها مفعولا به لفعل منفى حيث وقع عليها نفى الظلم فى أربعة مواضع : " ولا يظلمون فتيلا .. ولا يظلمون نقيرا" ووقع عليها نفى الإيتاء فى موضع : " فإذا لايؤتون الناس نقيرا" ونفى الملك فى موضع : " والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير " ... ويلاحظ أن أداة النفى " لا " قد استخدمت فى خمسة مواضع وهى تفيد تأبيد النفى أى : امتداده امتدادا متطاولا[2] .. فنفى ظلمهم فتيلا أو نقيرا ونفى إيتائهم الناس نقيرا ممتد لا نهاية له ... لا يظلمون فتيلا فى الدنيا ولا فى الآخرة ... لا يؤتون الناس نقيرا طوال حياتهم لشدة بخلهم وشدة حرصهم .. والموضع السادس استخدمت فيه أداة النفى " ما " ثم دخلت " من " الزائدة على المفعول : " ما يملكون من قطمير" فتأكد بها نفى أن يملك ما يدعونه من دون الله قطميرا .. إن التعبير بما فى هذا الموضع قد مكن من دخول " من " على المفعول فتأكد بها المعنى وتأكد المعنى كذلك بالبناء الذى بنيت عليه الجملة القرآنية الكريمة حيث تقدم المسند إليه : " والذين تدعون من دونه" ثم أخبر عنه بالخبر الفعلي المنفى :" ما يملكون من قطمير" .. كما أوثر التعبير بالفعل " يملكون " دون " يمتلكون" فاوحى ذلك بأن المنفى عنهم أدنى ما يمكن أن يملك .. إن زيادة "من" وإيثار التعبير بالفعل" يملكون" دون " يمتلكون " وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي المنفى .. أدى ذلك

---

(١) فاطر ١٣.

(٢) ذكر الزمخشرى رحمه الله أن " لن " تفيد تأكيد النفى وتأبيده .. والرأي أن " لا" هى الأحق بمعنى التأبيد دون " لن " حيث تتكون " لا " من " لام" بعدها " ألف" فيمتد بها الصوت ويؤذن امتداد النطق بها بامتداد معناها.. لذا فالنفى بها حرى أن يكون للتأبيد بخلاف " لن" التى يدل احتباس الصوت فيها على احتباس المعنى وعدم سريانه مع الزمن الممتد .. وأما التوكيد " فلن" أحق به حيث يؤكد بها ما نفى بغيرها يقال : لم يأت فلان ولن يأتى وما قام ولن يقوم ولا أعبأ بهذا ولن أعبأ به .. انظر مغنى اللبيب ٢٨٤/١ وبدائع الفوائد ٩٥/١.

إلى المبالغـــة فى حقـارة ما يملك وتأكيد نفي ملكهم إياه ... ولعل النفـى " بما " فى هذا الموضع خاصة دون بقية المواضع إنما هو للدلالة على المعنى المذكور وللإيحاء بأن تلك المعبودات التى يدعونها من دون الله ينبغى أن تنتهى وأن يقلع المشركون عن عبادتها ويعبدوا الله وحده .. لذا فلا حاجة إلى تأبيد النفى " بلا" كما فى بقية المواضع والله تعالي أعلى وأعلم .

وفى المواضع الستة كان الفعل المنفى مضارعا: " لا يظلمون .. لا يؤتون .. ما يملكون " وقد دل التعبير بالمضارع على التجدد والاستمرار فنفى الظلم والإيتاء والملك متجدد ومستمر يتجدد بتجد القائلين والعاملين والبخلاء والمشركين ويستمر ما استمروا ..

ثانياً:- ثلاثة من المواضع الستة جاءت فيها تلك الألفاظ " الفتيل والنقير والقطمير" فى سياق الاستفهام والثلاثة الأخرى جاءت فيها الألفاظ فى سياق الخبر.. فرأينا الاستفهام التعجبى أو الإنكارى فى قوله تعالي : " أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا"[1] فأم فى الآية إما متصلة والاستفهام تعجبي والمعنى : أمن قولهم للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا يتعجب أم من قولهم إن لهم نصيبا من الملك ؟ مع أنه لو كان لهم ملك لبخلوا بأقل القليل[2].

وإما منقطعة والاستفهام إنكارى فيكون المعنى : إنكار أن يكون لهم نصيب من الملك لأنه لو كان لهم نصيب منه ما آتوا أحدا مقدار نقير لفرط بخلهم ... وقد قلل هذا النصيب من الملك بتنكيره :" نصيب" وجر الملك " بمن" البيانية أو التبعيضية : " من الملك" كما حذفت الجملة بعد " إذ" وجاء التنوين عوضا عنها والمعنى :" ليس لهم من الملك أدنى نصيب إذ لو كان لهم منه نصيب ما آتوا أحدا مقدار نقير منه .. ويوحى هذا الحذف بأنهم لا يملكون شيئا من الملك لا قليلا ولا كثيرا .. والتعبير " بالناس" ينبئ بشدة بخلهم فهم ناس ويستحقون العطاء ولكن اليهود

---

(١) النساء ٥٣.

(٢) انظر تفسير الفخر الرازى ١٠/١٣٤.

يبخلون فلا يؤتون الناس.. ويصح أن يكون المراد بالإنكار : إنكار أنهم قد أوتوا نصيبا من الملك وكانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة وأنهم مع ذلك لا يؤتون أحدا شيئا مما يملكون[1] .

ورأينا الاستفهام بالهمزة الداخلة على أداة النفى " لم" وبعدهما فعل الرؤية فى الموضعين الآخرين : " ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم .. ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ..." والاستفهام فيهما تقريرى تحقيقى أريد به تقرير الرؤية وتحقيقها .. وقد أضرب " ببل " فى الموضع الأول عن تزكيتهم أنفسهم إلى تزكية الله تعالي من يشاء من عباده لأن تزكيته تعالي هى التى يعتد بها لا تزكية غيره فهو العالم بمن هو أهل للتزكية قال تعالي : " فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى"[2] .. وفى الموضع الثاني أمروا بعد الاستفهام بكف أيديهم عن القتال حيث لم يؤذن به بعد وأمروا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ... ثم يؤذن لهم بالقتال : " فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية " يوحى تنكير " فريق" بتحقيره وضعة منزلته وتوحى " إذا" الفجائية الواقعة فى جواب " لما " بأنه ما كان ينبغى أن تكون تلك الخشية .. لقد طلبوا القتال وسألوه ولما أذن لهم وكتب عليهم كانت تلك الخشية من فريق منهم وهى بمثابة الشئ غير المتوقع الذى يفاجأ به المرء ولذا عبر " بإذا " الفجائية التى آذنت بأن تلك الخشية – خشية الناس – كان ينبغى أن ينعدم وجودها .. ثم كان نداء من ذاك الفريق يعقبه استفهام فتمن : " ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب " وهنا نجد حذفاً بعد " لولا" وتقديره : لولا أخرتنا إلى أجل قريب فنعمل صالحا ونزداد تقربا ونتزود بالتقوى .. ويوحى هذا الحذف بأن رغبة ذاك الفريق لم تكن فى تحقيق هذا المحذوف وإنما كان طلبهم التأخير فرارا من القتال وخوفا من الناس ... ولذا جاء جواب استفهامهم : " قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا " ويلاحظ فى هذا الجواب حذف آخر إذ المعنى : قل متاع الدنيا

---

(١) انظر الكشاف ٥٣٤/١.

(٢) النجم ٣٢.

قليل ومتاع الآخر كثير ... فعدل عن ذلك إلى وصف الآخرة بأنها خير لأن ما فيها نعيم مقيم وليس متاعا .. ثم تختتم الآية بنفى أن يظلم أحد مقدار فتيل .

وفى المواضع الثلاثة الباقية جاءت تلك الألفاظ فى سياق خبرى حيث نفى فى أولها أن يكون الدين بالتمنى : " ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب.." فليس الفوز والفلاح بالأماني بل بالإيمان والعمل الصالح : " من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ..." وأخبر فى ثانيها بأن الناس مدعوون يوم القيامة بإمامهم : " يوم ندعو كل أناس بإمامهم " وأن الفائز منهم من أوتى كتابه بيمينه فإنه يقرؤه فرحا : " فأولئك يدخلون الجنة .. فأولئك يقرءون كتابهم" تعظيما وتكريما ولم تأت تلك الإشارة : " فأولئك " التى أوحت ببعد المكانة وعلو المنزلة إلا فى هذين الموضعين من المواضع الستة لأنهما- دون بقية المواضع - موضعا تكريم وتعظيم لمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ولمن أوتى كتابه يوم القيامة بيمينه .. ثم ختم الموضع الأول الذى ذكر فيه الإيمان والعمل الصالح بنفى أن يظلم العاملون مقدار نقير.. وختم الموضع الثاني الذى ذكرت فيه قراءة أصحاب اليمين كتبهم بنفى أن يظلم القارئون مقدار فتيل .

وجاء " القطمير " فى ثالث تلك المواضع التى كان سياقها خبريا حيث رأيناه مسبوقا بتلك الجملة الخبرية : " ذلكم الله ربكم له الملك " المكونة من مبتدأ : " ذلكم " أجملت فيه تلك الدلائل السابقة فى السورة الكريمة التى دلت على كمال قدرة الله تعالي وعظيم سلطانه ونفاذ إرادته .. وأخبر عنه بتلك الأخبار المترادفة : " الله " خبر أول يوحى بجلال الألوهية و " ربكم " خبر ثان يوحى بصفات الربوبية و " له الملك " خبر ثالث يدل على تفرده تعالي بالملك ومن تفرد بالملك تفرد بالخلق[1] .

---

(١) ويجوز أن يكون : " الله ربكم " خبران مترادفان يوحيان بصفات الجلال وصفات الربوبية .. و " له الملك " جملة مبتدأة واقعة فى قران قوله تعالي : " والذين تدعون من دونه ما

وبعد تقرير ذلك يعطف عليه ما ينبئ بعجز ما يعبدون من دون الله تعالي : " والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير"

ثالثا : أنه قد روعى فى ورود تلك الكلمات بناء الكلمة ... فكلمة : " فتيل " أخف هذه الألفاظ الثلاثة ولذا وردت فى ثلاثة مواضع .. وكلمة : " نقير" أثقل منها ولذا وردت فى موضعين ، وكلمة " قطمير" أثقلها ولذا جاءت فى موضع واحد ... إن كثرة أو قلة ورود الكلمة فى القرآن الكريم ترجع إلى أمور وتنبئ بمعان، فقد ترجع الكثرة إلى خفة الكلمة والقلة إلى ثقلها كما فى تلك الكلمات، وقد توحى كثرة استعمال الكلمة بالوفرة وكثرة الوجود وتوحى قلة استعمالها بالندرة وقلة الوجود، فكلمة : " صديق" لم ترد فى آيات الذكر الحكيم إلا فى موضعين اثنين ، فى قوله تعالي : " ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم .." إلى أن يقول عز قائلاً : " أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم"[1] وفى قوله تعالي: " فمالنا من شافعين * ولا صديق حميم"[2] وردت كلمة : " صديق" فى هذين الموضعين فقط وجاءت مفردة-كما نرى- أما كلمة " شافع" وكلمة " صاحب" فقد كثر استعمالهما فى القرآن الكريم ووردتا فى أكثر مواضعهما جمعا وهذا ينبئ بكثرة الأصحاب وكثرة من يتصدى للشفاعة فى الدنيا، ويشعر بندرة الصديق الحميم وقلة وجوده، وقد سئل بعض الحكماء عن الصديق فقال: " اسم لا معنى له" وذكر الزمخشرى رحمه الله أن الصديق وهو الصادق فى ودادك الذى يهمه ما أهمك " أعز من بيض الأنوق"[3] والأنوق: نوع من الطير موصوف بالغدر ويسمي أيضا بالرخمة بفتح الراء والخاء جمعها :

= يملكون من قطمير" .. ويجوز فى حكم الإعراب إيقاع لفظ الجلالة صفة لاسم الإشارة أو عطف بيان و " ربكم " خبرا لولا أن المعنى يأباه ... انظر الكشاف ٣٠٤/٣ وإباء المعنى إياه أنه لا يستقيم أن نقول : هذا الله عظيم كما نقول هذا الرجل عظيم ... إذ يوحى ذلك بأن هناك رجلا آخر غير المشار إليه .. وحاشا أن يكون هناك إله غير الله ... تعالي الله عن ذلك علوا كبيرا .

(١) النور ٦١.

(٢) الشعراء ١٠٠، ١٠١.

(٣) الكشاف ١١٩/٣.

"الرخم" بفتح الراء المشددة وفتح الخاء وقد عز بيضها لأنه لا يظفر به، إذ أوكارها تكون فى رءوس الجبال وفى الأماكن الصعبة البعيدة ، ويضرب هذا القول: " أعز من بيض الأنوق " مثلا لما يعز وجوده .. قال الأخطل :

من الجاريات الحور مطلب سرها . كبيض الأنوق المستكنة فى الوكر (١)

رابعاً: يلاحظ أن أربعة من تلك المواضع الستة قد جاءت فى سورة " النساء" ثلاثة منها نفى فيها الظلم، اثنان نفى فيهما ظلم " الفتيل" وموضع نفى فيه ظلم " النقير" والموضع الرابع نفى فيه إيتاء " النقير" فما سر ذلك ؟ لماذا كانت معظم المواضع فى سورة النساء؟ " النقير" : لم يرد إلا فى سورة " النساء " وموضعان من مواضع " الفتيل" الثلاثة قد وردا فى سورة " النساء" ولم يرد فى غير سورة " النساء" سوى موضع " للفتيل" فى سورة " الإسراء" وموضع " القطمير" فى سورة " فاطر" فهل لذلك من سبب؟:

إن سورة النساء قد اشتملت على أنواع من التكاليف فصلت تفصيلاً حيث فصل فيها ما ينبغى على المسلمين إزاء اليتامي وأموالهم قال تعالي : " وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبير"(٢) وقال تعالي: " وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ..." (٣) وقال تعالي : " إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيراً"(٤) فلا ينبغى الاعتداء على مال اليتم بأى وجه من وجوه الاعتداء، بل يجب أن يحفظ له ويصان ، وأن يدفع له فور مؤانسة رشده .. كما فصلت فى السورة الكريمة الأسس التى تبنى عليها الحياة الزوجية ، والروابط التى

(١) مجمع الأمثال ٣٩٠/٢ ولسان العرب مادة : رخم .

(٢) النساء ٢.

(٣) النساء ٦.

(٤) النساء ١٠.

تربط بين الزوجين ، وما ينبغى على كل منهما تجاه الآخر، وأرسى المنهج الذى يتحقق بإقامته استقرار الحياة الزوجية وصيانة حقوق الزوجين قال تعالي: " وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا . وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شئ منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئا"[١] وقال تعالي : " يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا* وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا"[٢]وقال تعالي : " الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله والتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا * وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها..." [٣] وقال تعالي : " وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا * ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما * وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما"[٤]

---

(١) النساء ٣ ، ٤.

(٢) النساء ١٩- ٢١.

(٣) النساء ٣٤، ٣٥.

(٤) النساء ١٢٨- ١٣٠.

وفصلت فيها المواريث ، وبين فيها ما حرم من النساء* ونهي فيها عن أكل الأموال بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض، وعن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق..." ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله بسيرا"(١).." ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدله عذابا عظيما"(٢) وأمر فيها بالهجرة وحذر من الاستكانة للظلم قال تعالي : " إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟" (٣) إلى غير ذلك مما شرع الله عز وجل فى السورة الكريمة آمرا فيه بالعدل وتحقيق الخير، ناهيا عن الظلم والعدوان ، مبينا عاقبة الظالمين: حيث جاء قرب ختام السورة قوله تعالي : " إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا"(٤) وقد نفى فى هذه السورة الكريمة أن يظلم الله جل وعلا مثقال ذرة ، قال تعالي : " إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما"(٥) ولم يرد نفى أن يظلم الله مثقال ذرة إلا فى هذه الآية من السورة الكريمة ، كما جاء فى السورة أيضا نفى محبة الله تعالي الجهر بالسوء من القول، واستثنى من ذلك من ظلم فله أن يجهر بما أصابه من ظلم قال تعالي : " لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليماً"(٦) وهذا أيضا مما انفردت به السورة الكريمة .

---

* اقرأ آيات المواريث : ١١ ، ١٢، ١٧٦ واقرأ آيات المحرمات من النساء ٢٢، ٢٣، ٢٤.

(١) النساء ٣٠.

(٢) النساء ٩٣.

(٣) النساء٩٧.

(٤) النساء ١٦٨ ، ١٦٩.

(٥) النساء ٤٠.

(٦) النساء ١٤٨.

من أجل ذلك كله كان اختصاص السورة الكريمة بنفى ظلم " النقير " وبموضعين من المواضع الثلاثة التى نفى فيها ظلم " الفتيل" .. ليكون ذلك إيذاناً وإيحاءً بأنه ينبغى ألا يظلم يتيم أو زوجة أو وارث فهؤلاء هم مظنة أن يقع عليهم ظلم ، وكذا لا ينبغى أن يقتل مؤمن عمدا وأن يؤكل مال باطلا، إن الله عز وجل لا يظلم مثقال ذرة ، ولا يظلم أحداً فتيلاً ولا نقيراً ، فينبغى لذلك أن يسود الخير والعدل بين المسلمين فلا يظلم أحد.

أما اختصاصها بنفى إيتاء الناس " نقيرا" فمرده إلى ظلم أهل الكتاب وبخاصة اليهود، والذى صرح به فى السورة الكريمة ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل، قال تعالي : " فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا* وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما"[1] إن اليهود قد وصفوا فى هذه السورة الكريمة بشر خصلتين وهما: البخل والحسد ، فهم يمنعون الناس ما آتاهم الله من نعمة ويتمنون أن تكون لهم نعمة غيرهم .. ومن وصف بالبخل والحسد واستحل الربا فأخذه وأكل أموال الناس بالباطل فإنه لا يجود بشئ ولا يعطى أحدا شيئا ولو كان مقدار نقير.

موضعا نفى ظلم " الفتيل" فى سورة النساء:

قال تعالي : " ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا"[2].. وقال تعالي: " ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لو أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا"[3].

---

(١) النساء ١٦٠ ، ١٦١.

(٢) النساء ٤٩.

(٣) النساء٧٧.

هذان هما الموضعان اللذان ورد فيهما نفى ظلم " الفتيل" فى سورة النساء وقد جاء الموضع الأول فى سياق الحديث عن اليهود، حيث أفاد السياق أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه وأنهم يخاطبون النبى صلى الله عليه وسلم بكلام يحتمل وجهين : المدح والذم ليّاً بألسنتهم ، قال تعالي : " من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين.."[1] فإن :" واسمع غير مسمع " يحتمل المدح والتعظيم أى : اسمع غير مسمع مكروها، ويحتمل الذم والشتم أى : اسمع مدعوا عليك بلا سمعت، أو اسمع غير مسمع جوابا ترضاه أو اسمع غير مقبول منك ولا تجاب إلى ما تدعو إليه ، وكذلك : " راعنا" يحتمل أنها من المراعاة والمراقبة وهذا مدح، ويحتمل أن تكون بعد لى ألسنتهم بها وإشباع كسرة العين فتصبح : " راعينا" أنها من الرعى ومرادهم أنك كنت ترعى أغناما لنا، وهذا ذم لحضرة النبي صلى الله عليه وسلم وحط لمنزلته العالية السامية ويحتمل أن يكون المراد سبه صلى الله عليه وسلم وشتمه ووصفه بالسوء... ذاك معنى الكلمة فى العبرية بعد إشباع كسرة العين ، ويحتمل معنى ثالث هو ذم أيضا - أن يكون المراد : ارعنا سمعك أى : اصرف سمعك إلى كلامنا وأنصت لحديثنا وتفهم ، وهذا مما لا يخاطب به الأنبياء بل يخاطبون بالإجلال والتعظيم ، ولذا نهى الله عز وجل المسلمين أن يتلفظوا بتلك اللفظة فى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالي: " يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم"[2] .

ويعرف هذا اللون من الكلام بالتوجيه وهو لون من ألوان البديع حيث يورد الكلام محتملا وجهين على حد سواء والمتكلم يوجهه الوجهة التى يريدها ولكنه إذا عوتب قال : إننى أردت الوجه الآخر.. وكان مراد اليهود لعنهم الله فى الآية الكريمة ذم النبي صلى الله عليه وسلم والحط

---

(١) النساء ٤٦.

(٢) البقرة ١٠٤.

من منزلته العالية[1] ويمضى السياق فيبين أنه من الخير لهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا ،وأن ينزل النبي صلى الله عليه وسلم منزلته قال تعالي : " ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا"[2] ثم يؤمرون بأن يؤمنوا بما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم مصدقا لما معهم فى التوراة وإلا طمست وجوههم ولعنوا كما لعن أصحاب السبت، فالله عز وجل لا يغفر أن يشرك به ، ولما نزلت هذه الآية : " إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما"[3] قال اليهود: " لسنا من المشركين بل نحن خواص الله تعالي وزكوا أنفسهم فقالوا : " نحن أبناء الله وأحباؤه "[4] ..." وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة "[5] ..." وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى "[6] وجاء قوم من اليهود بأطفالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : " يا محمد هل على هؤلاء ذنب؟" قال صلى الله عليه وسلم : " لا" فقالوا : " والله ما نحن إلا كهؤلاء، ما عملناه بالليل كفر عنا بالنهار وما عملناه بالنهار كفر عنا بالليل" وبالغوا فى تزكية أنفسهم، فنزلت الآية الكريمة : " ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا"[7] ويدخل فيها كل من زكى نفسه ووصفها بزكاة العمل وزيادة الطاعة والتقوى والزلفى إلى الله ، فلا ينبغى للإنسان أن يمتدح نفسه ويزكيها ، لأن التزكية متعلقة بالتقوى ، والتقوى صفة فى الباطن ، و لا يعلم حقيقتها إلا الله تعالي ، فهو وحده الذى يزكي من يشاء من عباده ، قال تعالي : " هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وأذ أنتم

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى ١٠/ ١٢٢.

(٢) النساء ٤٦.

(٣) النساء ٤٨.

(٤) المائدة ١٨.

(٥) البقرة ٨٠.

(٦) البقرة ١١١.

(٧) النساء٤٩.

أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى"[1] وتختتم الآية الكريمة بنفى ظلم الفتيل :" ولا يظلمون فتيلا " فالذين زكوا أنفسهم يعاقبون على تلك التزكية ولا يظلمون قدر فتيل ، والذين زكاهم الله تعالي يثابون على طاعتهم ولا ينقص من ثوابهم مقدار فتيل ، لا يظلم هؤلاء ولا أولئك شيئا لا قليلا ولا كثيرا.

إن السياق فى هذا الموضع قد ساده القول ، قول اليهود وليهم ألسنتهم محرفين الكلم عن مواضعه ، ثم تزكيتهم أنفسهم وتلك التزكية بالقول أيضا، ولذا ناسب أن يكون المنفى فى هذا السياق: هو ظلم الفتيل : " ولا يظلمون فتيلا" لأن لفظ " الفتيل" هو الذي ينسجم فى هذا السياق الذى ساده القول، فقد ضربت العرب المثل للرجل يحتال على صاحبه بالقول حتى يستجيب له منصرفا عن رأيه الذي يتمسك به ، ضربوا المثل لذلك بقولهم:" مازال يفتل له فى الذروة والغارب حتى لان وخضع له " فالذروة : سنام البعير، والغارب عنقه، ضرب الفتل فيهما مثلا لمن يحتال ويخادع ويظل وراء صاحبه يزين له القول ويزخرفه حتى يتخلى عن رأيه الذى يتمسك به وينصرف عنه ويستجيب لهذا الفاتل ويخضع له[2].

فلفظ " الفتيل" فى قوله : " ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا "[3] قد انسجم فى هذا السياق حيث ساد فيه القول وبدا ، ولا يصلح فى هذا السياق لفظ :" النقير" ولا لفظ : " القطمير" السياق هنا يأبي كلا اللفظين ، إذ لا علاقة لهما بالقول فبين القول والفتيل وشائج وصلات حيث ضرب الفتل فى الذروة والغارب مثلا لمن زين القول وزخرفه لصاحبه مخادعا محتالا حتى صرفه عن رأيه ... استجمع القول وتفنن له فيه حتى استجاب له صاحبه وانصرف عن رأيه الذى كان يتمسك به .. و " الفتيل" هو تلك القشرة التى انفتلت وتجمعت فى شق النواة .. فبين التفنن فى القول وانفتال الفتيل وتجمعه

---

(١) النجم ٣٢.

(٢) انظر مجمع الأمثال ٤٣٦/٢.

(٣) النساء ٤٩.

فى شق النواة علاقة وترابط وتآلف ولذا انسجم الفتيل فى هذا السياق الذى ساد فيه القول.

وجاء الموضع الثاني من موضعى نفى ظلم الفتيل فى سورة النساء فى سياق ساد فيه القول أيضا، حيث تصف الآية الكريمة : " ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا "[1] تصف أولئك الذين أرادوا أن يقاتلوا الكفار، وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ائذن لنا فى قتالهم فقال لهم : " كفوا أيديكم فإنى لم أومر بقتال " فلما أمروا بالقتال كان هذا القول من فريق منهم: " ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب"وإذا بهذا الفريق يخشى الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقد اختلف المفسرون فى هذا الفريق أهم من المؤمنين أم هم المنافقون ، والأولي حمل الآية على المنافقين لأن الأوصاف المذكورة: " يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية " لا تليق إلا بهم ، لأنه قد عطف على هذا القول: "وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال..." قوله تعالي " وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا"[2] وهذا القول المعطوف قول المنافقين فوجب أن يكون المعطوف عليه من قولهم أيضا[3].

وسواء أكان هذا الفريق هم المنافقين أم كان من المؤمنين الذين أرادوا القتال قبل الهجرة فلما كتب عليهم القتال كان منهم ذلك وقالوا هذا القول " ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب" سواء أكان من هؤلاء أم من أولئك ، فقد أمر صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : " قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا "

---

(١) النساء ٧٧.

(٢) النساء ٧٨.

(٣) انظر تفسير الفخر الرازى ١٩٠/١٠.

أى : أن المنافقين يعاقبون على نفاقهم وعقابهم عليه أن يكونوا فى الدرك الأسفل من النار ولم يظلموا فى هذا العقاب قدر فتيل وإنما هو جزاء نفاقهم ، والمؤمنون يثابون على ما قدموا من عمل ولا ينقص من ثوابهم مقدار فتيل، لقد جاء لفظ " الفتيل" فى قوله : " ولا تظلمون فتيلا" متسقا مع السياق ومنسجما مع القول الذى بدا فيه : " قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال ..." وبعده : " وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ... " ومن قبل ما قاله المستضعفون متمنين الخروج من تلك القرية الظالم أهلها:" ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا"[1] فلما بدا القول وساد السياق كان المناسب والملائم نفى ظلم " الفتيل" على نحو ما بينا فى الموضع السابق حيث يتناسب " الفتيل" وينسجم مع القول لما بينهما من صلات وروابط فأمر صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء القائلين جميعا: " متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا" أى :لا تظلمون مقدار فتيل : فهم لا يظلمون شيئا لا قليلا ولا كثيرا .

موضعا نفى إيتاء " النقير " وظلم " النقير" فى السورة الكريمة :

ورد نفى إيتاء " النقير" فى موضع واحد فى سورة النساء فى قوله تعالي :"أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا"[2] وورد نفى ظلم " النقير" فى موضع واحد أيضا فى نفس السورة الكريمة فى قوله تعالي : " ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا"[3]

وعند ما ننظر فى الموضع الذى ورد فيه نفى إيتاء " النقير" نجد أنه قد جاء فى سياق وصف اليهود بالبخل والحسد بعد أن وصفوا بالجهل

---

(١) النساء ٧٥.

(٢) النساء ٥٣.

(٣) النساء ١٢٤.

أو التجاهل عنادا ومكابرة حيث آمنوا بالجبت والطاغوت وقالوا للمشركين إن عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله .. قال تعالي : " ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا"[1] ولذا لعنهم الله تعالي : " أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً"[2] ثم جاء وصفهم بالبخل الشديد فى قوله تعالي: " أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً"[3] فأم فى الآية إما متصلة والاستفهام تعجبى والمعنى : أمن قولهم للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا يتعجب أم من قولهم إن لهم نصيبا من الملك ؟ مع أنه لو كان لهم ملك لبخلوا بأقل القليل .. وإما منقطعة بمعنى بل والهمزة، والاستفهام استفهام إنكارى والمراد إنكار أن يكون لهم نصيب من الملك أى: ليس لهم شئ من الملك البتة، لأنهم لو كان لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون أحدا مقدار نقير لفرط بخلهم ، والمراد بالملك فى الآية إما ملك أهل الدنيا وإما ملك الله تعالي كما فى قوله عز وجل: " قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا"[4] والثاني أولي لأنه أوصف لهم بالشح ولطباقه نظيره من آيات الذكر الحكيم، ويجوز أن يكون المعنى لإنكار أنهم قد أوتوا نصيبا من الملك وكانوا أصحاب أموال وبساتين وقصور مشيدة كما تكون أحوال الملوك فى الدنيا وأنهم مع ذلك لا يؤتون أحدا مما يملكون شيئا بل يبخلون بأقل القليل .. وقد كانوا كذلك كانوا أصحاب بساتين وأموال وكانوا فى عزة ومنعة ثم كانوا يبخلون على الفقراء بأقل القليل[5].

---

(١) النساء ٥١.

(٢) النساء٥٢.

(٣) النساء ٥٣.

(٤)الإسراء ١٠٠.

(٥)انظر الكشاف ٥٣٤/١ وتفسير الرازى ١٣٤/١٠.

ثم جاء وصف اليهود بالحسد فى قوله تعالي : " أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .." [1] والمراد بالناس : النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين .. لقد وصف اليهود فى هذه الآيات الكريمة بالجهل الشديد فى الاعتقاد إذ اعتقدوا أن عبادة الأوثان أفضل من عبادة الله وصرحوا بذلك للذين كفروا ولذا استحقوا لعنة الله تعالي، ثم وصفوا بالبخل الشديد وبالحسد وهما شرخصلتين ، إذ يمنعون الناس ما أوتوا من النعمة ، ولو كان لهم نصيب من ملك الله ما آتوا أحداً نقيرا منه ، ويتمنون أن تكون لهم نعمة غيرهم .

فى هذا السياق الذى وصف فيه اليهود بالجهل والبخل والحسد يأتي نفى إيتاء " النقير" فنجد أن لفظة " النقير" قد انسجمت مع هذه الصفات ، لأنها صفات قد تأصلت فيهم وترسخت بوجدانهم فيناسبها النقر لا الفتل، الفتل قد تلاءم وانسجم مع القول فى موضعيه السابقين، فذكر فيهما لفظ " الفتيل" و"القطمير" سيأتى الحديث عنه فى موضعه.. أما هذه الصفات : الجهل فى الاعتقاد والبخل والحسد فيلائمها لفظ " النقير" وينسجم معها لأنها صفات قد تأصلت فيهم وترسخت بوجدانهم والنقر يبدو أثره في الأشياء المنقورة ويبقى بها فلا يفارقها .. كما أن "النقير " نقرة في ظهر النواة باقية وثابتة ثبوت الجهل والحسد والبخل في نفوس اليهود .. إن " الفتيل والقطمير " يمكن إزالتهما فيفارقان النواة أما " النقير " فلا يفارق النواة بل هو باق بها بقاء الجهل والبخل والحسد في نفوس اليهود .. فبين "النقير" وتلك الصفات وشائج وصلات وروابط ولذا انسجم معها في هذا السياق .. ثم هو ينسجم مع الألفاظ التى ذكرت فى السياق: الجبت والطاغوت والملك ، فالجبت والطاغوت : كل ما عبد من دون الله ، والملك : تملك واستحواذ والذى يلائم ذلك لفظ " النقير" لما فيه من نقر وتعمل ... لقد انسجم لفظ " النقير" مع ألفاظ السياق ومعانيه ، ولو وضع فى موضعه لفظ " الفتيل" أو " القطمير" لرأينا خللا وقلقا ونبوا وعدم تناسب ، وحقا : " أفلا يتدبرون القرآن ولو كان

---

(١)النساء ٥٤.

من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"[1] وكان المنفى هنا إيتاء ليس ظلما ولا ملكا كما فى المواضع الخمسة الأخرى لأن السياق ساد فيه وصف اليهود بالجهل والبخل والحسد ومن كان كذلك لا يجود ولا يعطي شيئا وإنما يأخذ ويتمنى زوال ماعند غيره فنفى الإيتاء هو الذى يلائم ما وصف به اليهود.

* * * *

أما الموضع الذى ورد فيه نفى ظلم " النقير" فقد جاء فى سياق تجلي فيه أن المعول عليه إنما هو العمل، فليس الدين بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئا حصل له بمجرد دعواه ، ولا كل من قال إنه على الحق سمع قوله بمجرد ذلك القول، بل لابد أن يكون للمدعى برهان يؤيد ما ادعاه وللقائل دليل يؤيد قوله، هذا الدليل وذاك البرهان هو الأعمال المصدقة لما وقر فى القلوب.. لقد تجلي ذلك فى سياق الآيات الكريمة : " والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا * ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا* ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا"[2] تجلي فى سياق الآيات الكريمة أن العمل بعد الإيمان الذى وقر فى القلب هو الذى ينجي صاحبه فمن يعمل سوءا يجز به ، ومن يعمل صالحا من ذكر أو أنثى وقد استقر الإيمان فى قلبه فجزاؤه الجنة ولا يظلم نقيرا ، إن كلمة : " نقير" قد انسجمت مع الأعمال التى برزت فى هذا السياق، فالعمل يستلزم نشاطا ويتطلب من العامل أن يبذل جهدا فيما يعمل، وهذا يلائمه لفظ :" النقير" لأنه وإن كان معناه النقرة فى ظهر النواة وهو ما مثل به الشئ القليل الحقير الذى لا يظلمه من يعمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن- وإن كان معناه ذلك- فإن من معانيه ضرب الحجر ونحوه بالمنقار وهى آلة كالفأس

---

(١)النساء٨٢.

(٢)النساء ١٢٢- ١٢٤.

تقطع بها الحجارة ، ومن معانيه منقار الطائر وهو منسره الذى ينقر به والنقر يتطلب جهدا من الناقر كما تطلب العمل جهدا من العامل وبعد إتمام العمل والنقر يبدو أثر العمل الذى عمله العامل ويبدو أثر النقر فى الشئ المنقور ويبقى ذلك كما بدا " النقير" فى ظهر النواة وثبت بها .. فبين " النقير" والعمل وشائج وصلات وروابط .. ولذا تلاءم لفظ : " النقير" وانسجم مع العمل الذى برز فى سياق الآيات الكريمة .

وإذا امتد النظر فى السياق إلى أبعد من الآيات المذكورة وجدنا أعمالا أخرى يرتكبها أولياء الشيطان، يبتكون آذان الأنعام ويغيرون خلق الله ، قال تعالي : " إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا* ولأضلنهم ولأمنيهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا"[1] هذه الأعمال المتنوعة .. التى يرتكبها أولياء الشيطان : يبتكون آذان الأنعام ويغيرون خلق الله ، والتى يرتكبها أهل السوء" من يعمل سوءاً يجز به " والتى ينهض بها المؤمنون " ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن" قد انسجمت معها كلمة " النقير" فى قوله تعالي فى ختام الآية الكريمة : " فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً" انسجمت كلمة " النقير" مع تلك الأعمال ومع الألفاظ التى أدتهـا : " يبتكن آذان الأنعام ، يغيرن خلق الله ، يعمل سوءاً ، يعمل من الصالحات " ولا يصلح هنالك لفظ " الفتيل" يلفظه السياق وينبو به المعنى وتأباه الألفاظ .

وهكذا يتجلي لنا فى تلك المواضع الأربعة تمكن اللفظين : " الفتيل" و " النقير" فى سياقيهما وانسجامهما مع المعاني التى سادت فى السياق وبرزت به وتلاؤمهما مع الألفاظ التى جاءت به ، ففى موضعى " الفتيل" ساد فى السياق القول وبرز به : " من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم .. ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم " والتزكية كانت

---

(١)النساء ١١٧- ١١٩.

بتلك الأقوال التى قالوها .. هذا فى الموضع الأول، وفى الموضع الثاني : " يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها .. قيل لهم كفوا أيديكم .. وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال .. إن تصبهم حسنة يقولوا .. وإن تصبهم سيئة يقولوا..." فجاء لفظ " الفتيل" متمكنا فى هذا السياق منسجما مع الأقوال التى برزت به ، لأن " الفتيل" وإن كان معناه : القشرة فى شق النواة ، ومثل به للشئ القليل الحقير، فإنه قد ضرب " الفتل" مثلا لمن يحتال للأمر فيزين القول ويزخرفه لصاحبه حتى يستجيب له وينصرف عن رأيه الذى كان يتمسك به، قالوا فى ذلك : " مازال يفتل له فى الذروة والغارب حتى لان له " فبين فتل القول و " الفتيل" ترابط وتآلف - كما أوضحنا- من يفتل القول يستجمعه ويتفنن فيه .. و " الفتيل" : انفتال القشرة وتجمعها فى شق النواة[1] .. ولذا تلاءم لفظ " الفتيل" فى موضعيه :" ولا يظلمون فتيلا .. ولا تظلمون فتيلا" وانسجم مع القول الذى برز فى السياق .

وفى موضعى " النقير" تمكن نفى إيتاء النقير مع تلك الأوصاف التى وصف بها اليهود وهى : الجهل فى الاعتقاد : " يؤمنون بالجبت والطاغوت " والبخل الشديد : " أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا" والحسد : " أم يحسدون الناس .." وانسجم لفظ " النقير" مع تلك الألفاظ المعبر بها عن هذه الأوصاف : " الجبت .. الطاغوت .. نصيب .. والملك .. يحسدون " وكذا تمكن فى الموضع الثاني " نفى ظلم النقير" تمكن لفظ " النقير " فى ذلك السياق الذى برزت به تلك الأعمال : " تبتيك آذان الأنعام وتغيير خلق الله وعمل السوء " من يعمل سوءاً " وعمل الصالحات : " ومن يعمل من الصالحات .." وانسجم " النقير" مع تلك الأعمال وتلاءم فى سياقه مع الألفاظ المعبر بها عن تلك الأعمال وتجلي لنا فى المواضع الأربعة الوشائج والصلات والروبط التى تجمع بين اللفظين وما بدا فى سياقهما .

إن كلا اللفظين : " الفتيل والنقير" قد استقر فى موضعيه فى السورة الكريمة وتمكن فى سياقيه وانسجم مع المعاني والألفاظ فى هذه

---

(١)انظر ص٢٦ .

السياقات - على نحو ما رأينا - وقد اتضح لنا أنه من المحال أن يستبدل بأحد اللفظين اللفظ الآخر فى موضعيه ، المعنى فى موضعى : " الفتيل" يأبى " النقير" والألفاظ ترفضه والسياق يضج به .. وكذا فى موضعى : " النقير" المعنى يرفض " الفتيل" والألفاظ تأباه والسياق يضطرب به.

*****

موضع نفى ظلم " الفتيل" فى سورة الإسراء :

قال تعالي : " يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا * ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا "[1] جاءت هاتان الآيتان الكريمتان فى سياق تجلت فيه نعم الله تعالي على عباده .. " ربكم الذى يزجي لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما "[2] .. " ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا "[3] وهذه النعم تستلزم الشكر ، ولقد بدأت سورة الإسراء بتنزيه الله عز وجل وإبراز منزلة النبى صلى الله عليه وسلم : " سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير"[4] فقد كان " الإسراء والمعراج " تكريما للنبي صلى الله عليه وسلم وبيانا لمكانته عند ربه ، إذ اشتد إيذاء المشركين له بعد وفاة عمه أبى طالب وزوجه السيدة " خديجة" أم المؤمنين رضى الله عنها ، فجاء حادث " الإسراء والمعراج" ليظهر مكانة النبي صلى الله عليه وسلم .. والمؤمن عليه أن يشكر ربه على نعمه ، يشكره على نعمة الرسالة وإكرام النبي صلى الله عليه وسلم وإعلاء منزلته ، ويشكره على نعمه الكثيرة التى لا تحصي:

---

(١)الإسراء ٧١ ، ٧٢.

(٢)الإسراء ٦٦.

(٣)الإسراء ٧٠.

(٤)الإسراء ١ .

" وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم"[١] وجزاء شكر النعمة زيادتها فى الدنيا واستحقاق النعيم المقيم فى الدار الآخرة وجزاء كفرها العقاب الشديد : " وإذا تأذن ربكم لئن شكر لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد"[٢]هذا هو جو السياق الذى وردت فيه الآيتان الكريمتان وهما يصفان حال كل من الشاكر الذى شكر نعم ربه فى دنياه ، والكافر الذى أعرض عن شكر ربه ، تصف حالهما يوم القيامة .. " يوم ندعو كل أناس بإمامهم " الإمام : من يؤتم به ، فالنبى إمام أمته والقرآن إمام المسلمين والخليفة إمام رعيته ، والطاغية إمام من اتبعه ، لأن الإمام من ائتم به فى الخير أو فى الشر قال تعالي : " وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون"[٣] وقال تعالي : " وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون* وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين"[٤] والمراد بإمامهم فى الآية إما نبيهم فينادى يوم القيامة : يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، يا أمة إبراهيم يا أمة موسي يا أمة عيسى فينهض أهل الحق الذين اتبعوا الأنبياء فيأخذون كتبهم بأيمانهم ، ثم ينادى على الضالين بأئمتهم فى الضلال فيقال : يا أتباع فرعون ، يا أتباع نمروذ، يا أتباع فلان ، ينادى عليهم تبعا وشيعة لإمامهم ، فالنداء باسم الإمام والقيد " بإمامهم" متعلق بالفعل " ندعو" ويجوز أن يتعلق بمحذوف ، ويكون المعنى : يوم ندعو كل أناس مختلطين بإمامهم ، أى : ندعوهم وإمامهم فيهم[٥].

أو يكون المراد بإمامهم : كتابهم الذى أنزل عليهم فينادى : يا أهل القرآن يا أهل التوراة يا أهل الإنجيل، أو كتابهم الذى به أعمالهم ، قال تعالي " إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شئ

---

(١)النحل ١٨.

(٢)إبراهيم ٧.

(٣)السجدة ٢٤.

(٤) القصص ٤١، ٤٢.

(٥) انظر تفسير الفخر الرازى ١٨/٢١.

أحصيناه فى إمام مبين"[1] والمعنى على هذا : ندعوهم ومعهم كتبهم ، وتكون الباء بمعنى : " مع" وبعد هذا الدعاء يقرأ المؤمن كتابه الذى أوتيه بيمينه فرحا به مغتبطا وينادى على أهل المحشر:" هاؤم اقرءوا كتابيه "[2] وأما من أوتى كتابه بشماله فيندم ويغتم ويتوارى بكتابه ويخفيه وراء ظهره ويقول:" ياليتني لم أوت كتابيه "[3] ولذا سكت عن قراءته كتابه، لقد عاش فى دنياه أعمى البصيرة، لم يرنعم الله ولم يشكره عليها، إذ كيف يشكر وقد عميت بصيرته عن رؤية النعم وإبصار الهدى ودين الحق، ولذا فهو فى الآخرة أشد عمى وأضل سبيلا ،تعمي بصيرته فى الآخرة كما عميت فى الدنيا فلا يهتدى إلى طريق الجنة، ويعمى بصره فيحشر أعمى : " قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى "[4] وهذا العمي زيادة فى عقوبته ، لقد عميت بصيرته فى الدنيا عن إدراك الحق ومعرفة الهدى، فعميت فى الآخرة عن الاهتداء إلى طريق الجنة وزيد عليها عمى بصره جزاءً وفاقا قال تعالي : " يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون "[5] .

*****

إن نفى ظلم " الفتيل" جاء فى هذا الموضع فى سياق المؤمن فيه يكرم وينال جزاءه ، أوتى كتابه بيمينه فهو يقرؤه فرحا وينادى على غيره ليقرأ معه ، لقد كرمه الله فى الدنيا وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فعرفها وشكرها ، وها هو ذا يدعى اليوم بإمامه ، بنبيه الذى استجاب له أو بكتابه الذى التزم نهجه ، أو يدعي وقد تسلم كتابه بيمينه فيقرأ وقد عظمت منزلته التى أوماً إليها اسم الإشارة : " فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا " .

---

(١) يس ١٢.

(٢) الحاقة ١٩.

(٣)الحاقة ٢٥.

(٤) طه ٢٥ ، ٢٦.

(٥) هود ٢٠.

سبق نفى ظلم " الفتيل" هنا بالقراءة وهى قول ، فالمؤمن يقرأ وينطق بلسانه ، فلاءم ذلك لفظ:" الفتيل" ولا يصلح مكانه لفظ: " النقير" كما أوضحنا فى موضعى نفى ظلم " الفتيل" فى سورة النساء حيث سبق لفظ "الفتيل" هناك بالقول ولكنه يختلف عن القول هنا، إنه فى سورة النساء أقوال تقال فى الدنيا : تزكية للأنفس ولى للألسنة تحريفا للكلم عن مواضعه ، وقول يقوله المستضعفون : " يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها.."(١) وقول يقوله الذين كتب عليهم القتال : " .. وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب"(٢) هذا ما فاض به السياق هناك وقد تلاءم مع ما فصل فى السورة من تشريع .. أما هنا فالقول قراءة لكتب الأعمال فى الآخرة ، يقرؤها المؤمنون الذين آمنوا بربهم وعرفوا نعمه التى فاض بها السياق فشكروها وجاء وقت الجزاء فأوتوا كتبهم بأيمانهم وها هم أولاء يقرءونها ولا يظلمون فتيلا .. اختلف زمان ومكان القول ، ولكنه قول فناسبه لفظ " الفتيل" ولا يصلح لفظ " النقير" فى أى من هذه المواضع الثلاثة .

موضع نفى ملك " القطمير" فى سورة فاطر :

قال تعالي : " يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير"(٣) ورد نفى ملك " القطمير" فى هذا السياق من سورة فاطر، الذى تجلي فيه كمال علم الله وكمال قدرته ونفوذ إرادته وعظيم سلطانه، وبرزت فيه الأدلة على ذلك فى الآفاق وفى الأنفس ، فمن دلائل الآفاق فطر السموات والأرض وجعل الملائكة رسلا أولي أجنحة قال تعالي : " الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما

---

(١) النساء ٧٥ .

(٢) النساء ٧٧.

(٣) فاطر ١٣ .

يشاء"[1] ومنها إرسال الرياح وإثارتها للسحاب وسوقه إلى البلد الميت وإحياء الأرض به .. قال تعالي : " والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها"[2] ومنها تسخير البحرين وما فيهما لمنا فع الإنسان قال تعالي :" وما يستوى البحران هذا عذاب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتسخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون "[3] ومنها إيلاج الليل فى النهار وإيلاج النهار فى الليل وتسخير الشمس والقمر، قال تعالي: " يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى .."[4] .

ومن دلائل الأنفس قوله تعالي : " والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير "[5] ومن الأدلة أيضا على عظيم سلطانه ونفوذ إرادته قوله تعالي:" ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم"[6] ومن خلال هذه الأدلة وفى أثناء عرضها نرى هذا التساؤل : " هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون"[7] فى ضوء هذا السياق يأتي إثبات عجز تلك الآلهة التى تعبد من دون الله عن طريق نفى ملكها قطميرا ، وإذا كانت لا تملك قطميرا فلم تخلق شيئا لا قليلا ولا كثيرا .." ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير"[8] إن الإشارة : " ذلكم "

---

(١) فاطر ١.

(٢) فاطر ٩.

(٣) فاطر ١٢.

(٤) فاطر ١٣.

(٥) فاطر ١١.

(٦) فاطر ٢.

(٧) فاطر ٣.

(٨) فاطر ١٣.

تجمل تلك الدلائل السابقة التى تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال علمه ونفوذ إرادته وعظيم سلطانه : " ذلكم الله ربكم " ثم تأتي جملة القصر الحقيقى التحقيقي : " له الملك " التى تفيد اختصاصه تعالي بالملك كله ، ومن تفرد بملك الأشياء كلها فهو خالقها ومدبرها، " ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين "[1] .

تفرد المولي جل فى علاه بالملك كله، وتلك المعبودات التى تعبد من دونه لا تملك شيئا:" والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير" وإذا كانت لا تملك قطميرا فما خلقت شيئا لا قليلا ولا كثيرا، لأنها لو خلقت شيئا لملكته .. إن نفى الملك عن تلك المعبودات يتلاءم مع ما جلي وفصل فى السياق من دلائل ثم أجملت تلك الدلائل فى اسم الإشارة " ذلكم " الذى أخبر عنه بهذه الأخبار المترادفة : " الله ربكم له الملك " حيث يوحي الخبر الأول : " الله " بصفات الجلال ويوحي الخبر الثاني : " ربكم " بصفات الربوبية ويوحي الخبر الثالث : " له الملك" بتفرده تبارك وتعالي بالملك .. وبعد ذلك يأتي نفى ملك القطمير عن تلك المعبودات : " والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير " فنراه متلائما ومنسجما مع ما فصل وأجمل فى السياق من دلائل تدل على كمال قدرة الله تعالي وعظيم سلطانه ونفوذ إرادته .

و أوثر لفظ : " القطمير" هنا دون " الفتيل والنقير" لأنه هو الذى ينسجم فى هذا السياق الذى تجلت فيه قدرة الله تعالي وتفرده بالملك، فالقطمير وإن كان معناه اللغوى تلك اللفافة التى تحيط بالنواة ، وضرب مثلا للشئ القليل الحقير، إلا أن من مادته " القاف والطاء والميم " ما يدل على العظمة والضخامة ، فمن مادته : القطامي وهو الصقر ، وقطمان : اسم جبل ، والمقطم وهو جبل معروف بمصر يقع شرقى القاهرة ..ثم إن " القطمير" وإن ضرب مثلا للشئ القليل الحقير الذى لا يعتد به ولا يقام له وزن فإن معناه اللغوى يوحى بالإحاطة والشمول فهو تلك اللفافة التى تحيط بالنواة وهو بهذا المعنى يتلاءم مع ما فاض به السياق من إبراز قدرة الله تعالي والدلالة على عظيم سلطانه وكمال علمه

---

(١) الأعراف ٥٤.

وتفرده بالملك والخلق.. إن بين ما يوحي به المعنى اللغوى للقطمير من الإحاطة والشمول . إحاطة تلك اللفافة بالنواة . وما يدل عليه ما هو من مادته كالقطامى وقطمان والمقطم من الضخامة والعظمة .. بين ذلك وما قد تجلي فى سياق الآيات من إبراز لقدرة الله تعالي وإحاطة علمه ونفوذ سلطانه وشائج وصلات وروابط ولذا أوثر بالتعبير فى هذا الموضع دون أخويه .. فإيثار هذا اللفظ " قطمير" دون: " الفتيل والنقير" يوحى بأن الله عز وجل الذى كملت قدرته وعظم سلطانه وتفرد بالملك هو القادر على أن يخلق من النواة التى تحيط بها تلك اللفافة " القطمير" نخلا باسقات كالجبال فى العظمة والعلو والارتفاع ، أما تلك المعبودات التى يدعونها من دون الله فلا يملكون مقدار تلك اللفافة " ما يملكون من قطمير" إن لفظ : " قطمير" هو الذى ينسجم فى هذا السياق ويتلاءم مع ما جلي فيه من دلائل فى الآفاق السماوية والأرضية ، ومن دلائل فى الأنفس ، تدل على كمال قدرة الله تعالي وكمال علمه وعظيم سلطانه ونفوذ إرادته وتفرده بالملك والخلق ، ولا يتأتى فى هذا السياق أن يعبر بلفظ " الفتيل" ولا بلفظ " النقير" نرى قلقا ونبوا إذا وضع أحد اللفظين : " الفتيل أو النقير" مكان : " القطمير" ليس فى " الفتيل" ولا فى " النقير" ما يوحى بما أوحى به لفظ"القطمير" ذاك الذى أوحى به لفظ " القطمير" هو الذى جعله ينسجم فى هذا السياق ، فسبحان المحيط بأسرار كتابه .

خاتمـــــة :

اتضح لنا أن هذه الألفاظ الثلاثة : " الفتيل والنقير والقطمير" يتعلق معناها بالنواة وقد ضربت أمثالا للشئ القليل الحقير، يقول ابن السكيت : " الفتيل : ما كان فى شق النواة ، والنقير: النقطة فى ظهر النواة ، والقطمير: القشرة الرقيقة على النواة ، وهذه الأشياء كلها تضرب أمثالا للشئ التافه الحقير "[١].

فالمعنى اللغوى لهذه الألفاظ يكاد يكون واحدا : القشرة فى شق النواة ... النقطة فى ظهر النواة .. اللفافة أو القشرة الرقيقة التى تحيط بالنواة .. وقد ضربت جميعها أمثالاً لمعنى واحد هو : الشئ القليل الحقير التافه الذى لا يعتد به .

لكن كل لفظ منها له إيحاءات وله ظلال ... هذه الإيحاءات وتلك الظلال جعلت كل لفظ منها ينسجم فى سياقه الذى ورد به، ولا يصلح فى مكانه غيره .. فلفظ : " الفتيل" فعيل من الفتل ، والفتل : ضرب مثلاً لمن يحتال للأمر فيزين القول ويزخرفه لصاحبه حتى يصرفه عن رأيه الذى يتمسك به ويستجيب له ... قالوا فى ذلك : " مازال يفتل له فى الذروة والغارب حتى لان له "[٢]

فالفتيل له علاقة بالقول .. القول يستجمعه فاتله ويتفنن فيه لصاحبه و " الفتيل" قد انفتل وتجمع فى شق النواة .. ولذا جاءت مواضعه الثلاثة فى سياق القول : تزكية اليهود أنفسهم بالقول وليهم ألسنهم تحريفا للكلم عن مواضعه... ذاك هو سياق الموضع الأول للفتيل : " ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا "[٣] .. وفى الموضع الثاني برز فى السياق قول المستضعفين من الرجال والنساء والولدان: " الذين يقولون ربنا أخرجنا

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى ١٣١/١٠.

(٢) انظر مجمع الأمثال ٤٣٦/٢.

(٣) النساء ٤٩.

من هذه القرية الظالم أهلها .." [1] وقول من كتب عليهم القتال : " قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا "[2] .. وجاء الموضع الثالث فى سياق من شكر نعم الله فدعى يوم القيامة بإمامه أى : بنبيه الذى استجاب له أو بكتابه الذى التزم نهجه أو بكتابه الذى أوتيه بيمينه وأخذ يقرؤه ويقرئه غيره .. انطلق لسانه بكتابه يقرأ فرحا :" يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا"[3] انسجم لفظ الفتيل مع القول فى السياقات الثلاثة لما بينهما من وشائج وروابط وصلات .

ولفظ : " النقير" فعيل من النقر ، والنقر : ضرب الحجر وغيره بالمنقار، والمنقار : آلة كالفأس تقطع بها الحجارة ، ومنه منقار الطائر أى : منسره الذى ينقر به ، ويقال للخشب الذى ينقر فيه : " نقير" لأنه ينقر[4] .

" فالنقير" يوحى بالقوة وبذل الجهد وثبوت أثر النقر فيما نقر ويؤذن بأن تلك النقرة فى ظهر النواة باقية لا تفارق النواة ولا يمكن إزالتها كما يزال " الفتيل والقطمير" ولذا جاء موضعه الأول فى سياق ما تأصل فى النفوس وقر بالوجدان وهو جهل اليهود أو تجاهلهم عنادا ومكابرة قال تعالي : " ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا"[5] وبخلهم الشديد وحسدهم الناس قال تعالي: " أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .." [6] فهذه الخصال : الجهل والبخل والحسد قد تأصلت فى

---

(١) النساء ٧٥.

(٢) النساء ٧٧.

(٣) الإسراء ٧١.

(٤) انظر لسان العرب مادة : نقر .

(٥) النساء ٥١.

(٦) النساء ٥٣ ، ٥٤.

نفوس اليهود وترسخت بوجدانهم وثبتت ثبوت النقر فى الشئ المنقور وثبوت النقير بظهر النواة .

وجاء موضعه الثاني فى سياق برز فيه العمل بألوانه : عمل أولياء الشيطان لعنه الله .. قال تعالي : " ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله "[1] وعمل السوء قال تعالي : " ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به "[2] وعمل الصالحات قال تعالي : " ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا"[3] فبين " النقير" وما وصف به اليهود وشائج وصلات وكذا بين " النقير" والعمل وشائج وصلات وروابط .. ولذا انسجم " النقير" مع الجهل والشح والحسد الذى برز فى الموضع الأول ، ومع ألوان العمل التى برزت فى الموضع الثاني.

ولفظ : " القطمير " فيه إيحاء بالعظمة والضخامة والإحاطة والشمول على الرغم من ضآلة معناه اللغوى وحقارة وتفاهة معناه المجازى .. وذلك : لأن من مادته : القطامى وهو الصقر ، وقطمان اسم جبل ، والمقطم : وهو جبل في مصر معروف يقع شرقى القاهرة[4] .. ولأن معناه اللغوى وهو تلك اللفافة التى تحيط بالنواة يوحي بالإحاطة والشمول على الرغم من ضآلته وحقارته لغويا ومجازيا ..

ولذا انسجم هذا اللفظ " قطمير" فى سياق سورة فاطر حيث تجلي فى سياقها الدلائل فى الآفاق وفى الأنفس التى تدل على كمال قدرة الله تعالي وكمال علمه وعظيم سلطانه ونفاذ إرادته : من فطر السموات والأرض وجعل الملائكة رسلا أولى أجنحة وإرسال الرياح وإثارتها السحاب وسوق ذاك السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض به وتسخير الشمس والقمر وإيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل .. إلى غير ذلك

---

(١) النساء ١١٩.

(٢) النساء ١٢٣.

(٣) النساء ١٢٤.

(٤) انظر لسان العرب مادة قطم .

مما ذكر فى السورة الكريمة من دلائل فى الآفاق السماوية والأرضية .. وكذا دلائل الأنفس التى خلقها الله فى أحسن تقويم : " والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير "[1] إن لفظ " قطمير " قد انسجم فى هذا السياق الذى تجلت فيه قدرة الله وكمال علمه وتفرده بالملك .. لأنه دل على أن ما يدعونه من دون الله لا يملكون مقدار قطمير ولذا فلم يخلقوا شيئا لا قليلا ولا كثيرا .. وأوحى بأن الله الذى تفرد بالملك وتجلت قدرته هو القادر على أن يخلق من النواة التى أحاطت بها تلك اللفافة " قطمير " نخلا باسقات لها طلع نضيد : " ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير "[2] .

إن كل لفظ من هذه الألفاظ الثلاثة : " الفتيل والنقير والقطمير " قد انسجم فى سياقه الذى ورد به لما له من إيحاءات وظلال تلاءم بها مع ما برز فى السياق ... ومحال- بسبب تلك الإيحاءات- أن نجعل أحد هذه الألفاظ فى موضع من مواضع اللفظين الآخرين .. على الرغم من أن معانيها اللغوية تكاد تكون واحدة وأنها قد استعملت مجازا لمعنى واحد حيث ضربت كلها أمثالاً للشئ التافه الحقير الذى لا يعتد به ولا يقام له وزن .

****

وبإنعام النظر فى استخدام تلك الألفاظ الثلاثة : " الفتيل والنقير والقطمير " فى مواضعها من آيات الذكر الحكيم يتجلي لنا :

١- أنها قد استخدمت فى تلك المواضع نكرة : " ولا يظلمون فتيلا .. ولا يظلمون نقيرا .. لا يؤتون الناس نقيرا .. ما يملكون من قطمير " وهذا التنكير يزيد من التقليل والتحقير الذى ضربت تلك الألفاظ أمثالا له .. وقد وقعت جميعها مفعولا به للفعل المضارع

---

(١) فاطر ١١ .

(٢) فاطر ١٣.

الدال على التجدد والاستمرار ونفى هذا المضارع " بلا" التى تفيد تأبيد النفى أى : امتداده امتدادا متطاولا فى خمسة مواضع من المواضع الستة ... ونفى " بما" فى الموضع السادس حيث مكن النفى بها من دخول " من" الزائدة على المفعول " قطمير" فتأكد بها معنى النفى .. وأشعر إيثار النفى " بما" فى هذا الموضع خاصة دون بقية المواضع بضرورة أن تنتهي تلك المعبودات وأن يقلع المشركون عن عبادتها ولذا فلا حاجة لتأبيد النفى فى هذا الموضع : " والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير " كما تأبد فى المواضع الأخرى .

٢- روعى فى استخدام تلك الألفاظ أبنيتها ... فكلمة : " فتيل" أخفها ولذا جاءت فى ثلاثة مواضع .. وكلمة : " نقير" أثقل منها بناء ولذا جاءت فى موضعين .. وكلمة : " قطمير" أثقلها ولذا جاءت فى موضع واحد .

٣- لفظ: " الفتيل" استخدام فى مواضعه الثلاثة مع نفى الظلم : " ولا يظلمون فتيلا " ولفظ : " النقير" استخدام مع نفى الظلم فى موضع : " ولا يظلمون نقيرا" وفى الموضع الآخر استخدم مع نفى الإيتاء: " فإذا لا يؤتون الناس نقيرا" أما القطمير فقد استخدم مع نفى الملك:"والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير" .. ونفي الإيتاء قد تلاءم مع الجهل والبخل والحسد الذى ورد فى سياقه :" أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا"[١] .. وتلاءم نفى الملك عن تلك المعبودات مع كمال قدرة الله تعالي وعظيم سلطانه وتفرده بالملك الذى برز فى سياقه : " ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير"[٢].. وكذا نفى الظلم قد تلاءم فى مواضعه الأربعة مع ما برز فى السياق من أقوال وأعمال .. أما الألفاظ الثلاثة : " الفتيل ..

---

(١) النساء ٥٣.

(٢) فاطر ١٣ .

الفتيل .. والنقير ... والقطمير " فقد تجلي لنا مدى انسجامها مع السياق فى مواضعها التى استخدمت فيها .

٤- اختصت سورة النساء بأربعة مواضع من المواضع الستة التى استخدمت فيها تلك الألفاظ : " الفتيل والنقير والقطمير" ثلاثة منها نفى فيها الظلم ... موضعان نفى فيهما ظلم " الفتيل" وموضع نفى فيه ظلم " النقير" .. والموضع الرابع نفى فيه إيتاء " النقير" .. أما الموضع الخامس فقد نفى فيه ظلم " الفتيل" وقدجاء منسجما فى سياقه من سورة الإسراء - كما أوضحنا - والموضع السادس نفى فيه ملك القطمير عن تلك المعبودات وقدجاء كذلك منسجما فى سياقه من سورة فاطر .

ويرجع اختصاص سورة النساء بأربعة من تلك المواضع الستة التى استخدمت فيها الألفاظ الثلاثة :" الفتيل و النقير والقطمير" إلى اشتمالها على أنواع من التكاليف فصلت فيها تفصيلا .. فقد فصل فيها ما ينبغى إزاء أموال اليتامى .. وفصلت فيها المواريث وفصلت فيها العلاقات الزوجية وما ينبغى على كلا الزوجين إزاء الآخر .. وفصلت فيها المحرمات من النساء .. ونهى فيها عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وعن أكل الأموال بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض .. إلى غير ذلك مما شرع الله تعالي لعبادة وفصل فى السورة الكريمة ، فلا ينبغى أن يظلم أحد أحدا .. بل يجب التوقف عند حدود الله ، والتزام ما شرع لعباده ..

إن السورة الكريمة قد انفردت بقوله تعالي :" إن الله لا يظلم مثقال ذرة .." [١] وانفردت بقوله تعالي :" لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم "[٢] فمن ظلم له أن يجهر بمظلمته ويطلب رفع الظلم عنه .. وجاء قرب ختام السورة الكريمة قوله تعالي : " إن الذين كفروا

---

(١) النساء ٤٠ .

(٢) النساء ١٤٨ .

وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا "[1] .

ولذا اختصت السورة الكريمة بنفى ظلم"النقير"فلم يرد إلا بها... واختصت بموضعين من المواضع الثلاثة التى نفى فيها ظلم" الفتيل" ليكون ذلك إيذانا بأنه لا ينبغى أن يظلم أحد أحدا .. لا ينبغى أن يظلم يتيم أو وارث أو امرأة .. بل ينبغى أن يسود العدل بين المسلمين ويعم الخير ويحق الحق ويبطل الباطل.. أما اختصاصها بنفى إيتاء " النقير" فيرجع إلى ما فصل فى السورة عن اليهود من ظلم وعدوان وأخذ للربا وأكل أموال الناس بالباطل قال تعالي : " فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا* وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما"[2] .

إن اليهود قد وصفوا فى هذه السورة الكريمة بشر خصال .. وصفوا بالجهل فى الاعتقاد وبالبخل الشديد وبالحسد ... فهم يؤمنون بالجبت والطاغوت ويجعلونه أهدى من الذين آمنوا .. ويمنعون الناس ما آتاهم الله من نعمة .. ويتمنون أن تكون لهم نعمة غيرهم .. وتلك شر خصال وصفوا بها .

لذا اختصت السورة الكريمة بنفى إيتائهم الناس نقيرا..قال تعالي : " أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا"[3].. إن من وصف بتلك الخصال : الجهل والبخل والحسد وهى شر خصال يوصف بها بنوالإنسان لا يجود بخير ولا يعطي أحدا شيئا ولو كان مقدار نقير .

٥- جاءت تلك الألفاظ الثلاثة : " الفتيل والنقير والقطمير" فى سياق الاستفهام فى ثلاثة من المواضع الستة .. أحدها : " أم لهم نصيب من الملك " وهذا استفهام تعجبى إذا اعتبرت أم متصلة وإنكارى إذا اعتبرت منقطعة .. ثانيها:" ألم تر إلى الذين يزكون

---

(١) النساء ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) النساء ١٦٠، ١٦١ .

(٣) النساء ٥٣.

أنفسهم" .. وثالثها : " ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم .." والاستفهام فى الموضعين تقريري تحقيقى أريد به تحقيق الرؤية وتقريرها .

وفى المواضع الثلاثة الأخرى جاءت الألفاظ فى سياق خبرى حيث أخبر فى الأول بأن الدين والفوز والفلاح ليس بالأماني بل بالإيمان والعمل الصالح : " ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به .. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة " وأخبر فى الثاني بأن الناس يدعون يوم القيامة بأيمانهم والفائز منهم من يؤتى كتابه بيمينه .. وأخبر فى الثالث بكمال قدرة الله وعظيم سلطانه وتفرده بالملك : " ذلكم الله ربكم له الملك " وجاءت الإشارة فى الموضعين الأول والثاني : " فأولئك يدخلون الجنة ... فأولئك يقرءون كتابهم " مشعرة بتكريم وتعظيم المؤمنين العاملين والقارئين كتابهم يوم الدين ... كما جاءت الإشارة فى الموضع الثالث : " ذلكم الله ربكم له الملك " مشعره بكمال قدرة الله تعالي وعظيم سلطانه ...وقد تجلي لنا فى ثنايا هذا البحث ما فى سياق المواضع الستة من دقائق وإيحاءات ومزايا بلاغية ... هذا والله تبارك وتعالي أعلى وأعلم .

مصادر البحث

١- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ط : دار التراث بالقاهرة .
٢- أساب النزول للنيسابورى مكتبة الدعوة بالقاهرة .
٣- أسرار البلاغة لعبدالقاهر تحقيق محمود شاكر ط : المدنى .
٤- إعجاز القرآن للباقلانى ط : دار المعارف .
٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوى ط : دار الكتب العلمية .
٦- الإيضاح للخطيب القزوينى ط : صبيح .
٧- تفسير أبى السعود ط : دار إحياء التراث العربى .
٨- تفسير الفخر الرازى ط : دار الفكر .
٩- ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ط : دار المعارف .
١٠- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ط : دار الكتب العلمية .
١١- دلائل الإعجاز لعبدالقاهر تحقيق محمود شاكر ط : المدنى .
١٢- روح المعانى للألوسي ط : دار إحياء التراث العربى .
١٣- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ط : دار الكتب العلمية .
١٤- الفتوحات الإلهية للعلامة الجمل ط : الحلبى .
١٥- القاموس المحيط للفيروزا بادى ط : الحلبى .
١٦- الكشاف للزمخشرى ط : الحلبى .
١٧- لسان العرب لابن منظور ط : دار المعارف .
١٨- المثل السائر لابن الأثير ط : دار نهضة مصر .
١٩- مجمع الأمثال للميداني ط : المدنى .
٢٠- مغنى اللبيب لابن هشام ط : المدنى .
٢١- النبأ العظيم د / محمد عبدالله دراز ط : السعادة .
٢٢- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للفخر الرازى ط : الآداب .
٢٣- النهاية فى غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الأثير ط : دار الفكر .